أحمد عادل

مجزرة الجنون

قصص

إلى الأخ العزيز فارس
مع أطيب التحيات والاحترام

أخوك عبد الله
في ٢٠٠٢/١١/١٤

مجزرة الجنون

مجزرة الجنون
أحمد عادل
الإصدار الأول 2003
رقم الموافقة: 71139 بتاريخ 2002/2/2
جميع الحقوق محفوظة
توزيع دار الكنوز الأدبية
ص. ب: 7226 – 11
بيروت – لبنان
هاتف/فاكس: 739696

إلى من حملني

إهداء

إلى من حملني عبءَ الحنين فأطلق النارَ عليَّ وانتحر!

أحمد

مُقدمَة

يبدو أنَّ قَدَر الإنسان أن يتعثر حُلمه! ذلك الإنسان الحالم بضفتين وشاطئٍ أزرق. أقصد الإنسان المتمثل فينا سنواتٍ من القهر والتشرد والمطاردات التي لا تنتهي! ومع هذا إننا الآن على واجبنا الأول ولا نبتعد عنه أبداً. وقد يحدث أن المتلقي البعيد قد يتهمني بالعناد غير المقبول في بلاد الشام 'مثلاً'. ولذلك أجد أنَّ التوضيح لهذه الحالة النفسيّة قد يرتبط بجانبٍ فيزيولوجي إذا ما عُدنا إلى الدراسات العلميّة المتعلقة بالأمر ذاته وأضيف إلى هذا التأشير أننا في الأهواز لنا قيم وعادات وتقاليد فلا نستطيعُ التنصل منها مهما كَلَّفَ الأمر. وهذا يعني أننا شعب عربي أخذ كُلَّ ما يملك من موروثٍ عربيٍ له من التاريخ عشرات القرون ولا أوقف الأمر عند الجاهلية الأولى أو الثانيّة بل أعود بذلك إلى زمنٍ طويلٍ سبق الجاهليتين حتماً.

العناد يعني لي التَشَدّد المُتَشَدِّد إلى الموقف. وأنا مع التشدد غير المحدود إلى القضايا المبدئيّة. ومن يَتَشَدّد إلى مبدئه 'الفكري، العلمي، الإنساني، بكل أبعاده' يتشدد إلى انتمائه الإنساني ومن يتخلى عن إنسانيته فهذا يعني أنه خسر العالم وربح ذاته.

لم أبدأ حياتي بصفائر الحياة أبداً. فقد بدأتها بالتضحية لأجل سعادة الآخرين ولا في سبيل سعادتي. وحلمت منذ نعومة أظفاري

بأحلام إنسانيّة فلا يحلم بها إلا الإنسان الواهب نفسَه للإنسانيّة لا لنفسه. كُنت منذ نعومة أظفاري أحلم بما يخدم الإنسان بكل ما تعنيه الكلمة. وكُنت أتألم إذا رأيتُ فقيراً بين أفراد عشيرتي. وحين استطعت السفر إلى المدن والتجول في ثناياها كُنتُ أتألم كثيراً إذا رأيتُ شرطياً يُهينُ إنساناً. ولأنّ الشرطي في ذلك الوقت يُمَثّل الدولة بكل جبروتها كُنتُ اضطر إلى أن أكْظِم غيظي وأنتظر اليومَ المناسب حتّى وصل ذلك اليوم وهو يوم انتمائي إلى حركة الشعب في أواخر الستينيات فَكُنتُ إلى جانبِ من وقفوا المواقف البطوليّة إزاء الظلم والعبودية والإذلال.

وفي منتصف السبعينيات حصل التطوّر الآخر. أو التَهوّر الآخر!!. أو الانتقال من مرحلة صاخبة إلى مرحلة الهدوءِ النسبي في عمليّة النضال التي كُنّا نمارسها بجدٍّ وبإخلاصٍ وبشرفٍ نعتزُّ به آنذاك وما زلنا نقول إنه التاج الذي يُزعجُ الذينَ جبنوا في مرحلة النضالِ، كُلما لبسناه.

وبالطبع إنني هربت من العراق في منتصف السبعينيات كما هربت من الأهواز في أواخر الستينيات وهذا يعني أنني مهيأ للموت أيضاً. ومهيأ للسجنِ كذلك. مهيأ للتنقل والتشرد ومهيأ للحياة في الوقتِ ذاته.

لا أريد أن أكثر من سرد قصص تحتاج إلى أكثر من هذا الحديث المختصر جداً جداً جداً. وإذ أكون على طاولة الوقت الناسب فلا أقصِّر بسرد المزيد من شظايا الأزمنة وخُرافاتها!. أستخدم هذا التعبير من بابِ المجاز كحالةِ عبورٍ نحو أسطَرَت الأحداث المنسيَّة في أجنَّة الليل الغائبة. فسروها كما شئتم. واستخدموا كُلَّ المصطلحاتِ الحديثة. بدءاً بالبنيويّة المنتهية. وانتهاءً بالتفكيكيّة التي أؤمن بها وأُحبُّها. ولكنَّ هناك شرطاً واحداً. أرجو التقيّد به وهو أنّ احترام الإنسان واجب من واجباتنا. واحترام العلم واجب من واجباتنا. واحترام

التاريخ المشَرّف علينا ألا نُسئ إليه لأننا بذلك نحترم أنفسنا إذا ما احترمناه ونسيء إلى أنفسنا إذا ما أسأنا إلى تاريخ الآخرين إذا ما كان تاريخاً إنسانياً ولا تاريخ 'الزعران والبلطجيّة والخونة'.

ويأتي موضوع القصص في إطارها الحالي. أقصد هذه المجموعة لا غيرها. إنها تلك التي كُتبت في الثمانينيات وفي بداية التسعينيات فنُشر البعض منها في هذه الصحيفة أو تلك. وللإغناء من جهة أُخرى أُضيف إليها بعضاً من 'القصص القصيرة جداً' وهي لم تكتب إلا في أيام قليلة سبقت كتابة هذه المقدمة. فقد كان بودي ألا أتأخر في نشرها إلى هذه الدرجة القابلة لعَدم القبول من جانبي. وحتَّى القارئ لعلّه يتساءَل أو يَضع المسؤوليّة على كاهلي وفعلاً إنني المسؤول عنها ولا يوجد شخصٌ آخر. ولكنني في الوقت ذاته اضطر إلى عمليّة للدفاع عن نفسي لا سيما إنني أجد نفسي بريئةً من التقاعس والتنافس والمؤدي إلى تأجيل الغيوم وأمطارها.

إنني شاعرٌ وقصصي أملك طموحاً خرافياً لا حَدَّ له. ولكنني قُيدت بقيودٍ حديديةٍ يُرهق الحديدَ ثقلُها.

ومع هذا حاولت وما زلت أحاول أن أحطم قيودي وأخرج إلى عالم النور والمسرات. ومع كُل شيءٍ حزينٍ وموجعٍ فلا أنكر أنني استمتعت بحياتي. فقد مارست علاقات اجتماعية فلا أجمل منها على الإطلاق. أحببتُ من خلال ذلك أُناساً طيبين صادقين أبدعوا في عمليّة التواصل والوفاء. وإنّ الصديقات اللواتي تعرَّفْنَ إليَّ عبر العقدين الأخيرين هُنَّ قمّة في الأنوثة والعطاء.

فقد كُنت أرى في عين كُل واحدة من الأربع المميزات أرى مجتمعاً كاملاً من النساء. وأما الأُخريات وهُنَّ مجموعة أنثوية لا بأسَ بها فلا أستطيع أن أنسى أية واحدة منُهنَ باستثناء المعزاة الهزيلة تلك التي شعرت بالندم حين قبَلتها.

وما دام الحديث عن النساء هو المسيطر في أسطرنا الآنفة أرى أنّ الواجب العاطفي يفرض الاعتذار عليّ أمام أربع صديقات وخامسة أيضاً أحبن الزواج منيّ من دون شرطٍ ومقابلٍ وحينَ كُنتُ على شيءٍ من الاعتذار إزاءَ تلك المشاعر النبيلة تعرضت إحداهنّ إلى معاناة نفسيّة ما رضيت أن أكون سببها المباشر ولكنّ الظروف التي فرضت وقعها من الممكن أن تشفع لي وإنّ الذي أتمناه أن يكون كذلك.

إنّ حُلمي في إنجاز مشروعٍ قصصي كان جميلاً. وما زال جميلاً. وهو إن تَعَثّرَ بسببِ ظروفٍ موضوعيّة في مقدمتها الجانب الصحي الذي هو الأب الشرعيُّ للكارثة، فلا يستمر على ما سارَ عليه في التَعَثر أبداً. إنه سينهض من جديد. وسيسير وسيستمر وستصل خلاله إلى الناس ما فُقدت من مشاهد اجتماعيّة وسياسيّة وأعاهد الذين يحبونَ الأدب ويحترمونه بأنني سأعمل صادقاً مخلصاً في مجال الكلمة الخيرة. وفي سبيل أدبٍ إنساني لا يدعو الناس إلا للمَحَبَّة والخير ونبذ الكراهيّة وجميع الحالات التي تُشِيء الإنسان أو التي من المفروض أن تُباد منذ قرونٍ وهي التي أقصد بها تلك المنتهية إلى الشر ولا تمت بصلةٍ إلى خيرٍ سَعَت الناس إليه مُذ عَرَف الإنسانُ أن الفضيلة تكمن في الخير وأما الشر فهو العمل الذي لا يسعى إليه إلا من يحمل الصفات الحيوانيّة وفي مقدمتها صفة الذئب والخنزير والثعالب المصابة بداء الكلب.

إنّ القصص التي كتبتها تتجاوز هذه المجموعة. وقد كان حلمي أن تتوزع على أكثر من مجموعةٍ وذلكَ لما سيَّجها من إطار فنيٍّ رأيت فيه التجانس بينَ واحدةٍ وأُخرى يصلح لأن تكون الفئة من هذا النوع قائمة على أساس الوحدة الكاملة وهي التي أقصد بها المجموعة الواحدة فتأتي الأخرى على أساس التنظيم نفسه من حيث الشكل والمضمون القائم على أساس الحلم مثلاً. وقد كتبت في الحلم أكثر من

قصة. ونشرت منها قصة واحدة في جريدة 'الانطلاقة' تحت عنوان 'الحلم الرابع' وقد كان حلمي القصصي في هذا الجانب أن أنجز مجموعةً كاملةً تحت عنوانٍ واحدٍ فقط. وهو الذي سار على أساس تسلسلٍ طبيعيٍّ من الحلم الأول، حتى الحلم الرابع الذي تطرقت إلى ذكره في الأسطر الآنفة.

في النصف الأخير من الثمانينات نشرت عدداً لا بأس بهِ عبر صحف مختلفة الاتجاهات الفكريّة والسياسيّة وفي بداية التسعينيات أتت ظروف موضوعيّة وذاتيّة أوقفتني عن النشر كما أنها أضعفت الكتابة القصصيّة لديّ. وهي في الوقت نفسه كادت تجرني إلى موتٍ سريعٍ فصمدت وأخذت أقاوم شبح الموت الجاثم أمامي في هذا المكان أو ذاك. وحاولت الخلاص منه بالهروبِ إلى الدول الأوروبيّة فكُنتُ كلما أجمعت نفسي وربطت أحزمتي وهيأت نفسي للركوبِ في الطائرةِ أتاني من يسحب سلم الصعود من أمامي وقال لي 'يجب أن يموت البدوي على ظهر ناقته'.

وما متُّ أبداً.

وما تنازلت لهذه الجهة أو تلك.

فقد بقيت إنساناً محافظاً على المبدأ والخط الذي سار عليه. وآخيتُ خلال ذلك المزيد من الشعراء والأطباء ورجال علم وسياسةٍ بدأتهم بسقراط الذي عتبتُ عليه كثيراً لعدم هروبهِ من السجن وختمتهم بجيفارا الذي تمنيتُ أن أكون إلى جانبهِ حين انهمَرَ الرصاصُ عليه فقاتل وظلّ يقاتل إلى أن خانت البندقيّةُ يَديه فمات في الأسر شامخاً مثل جبال الألب وأعلى.

أ.ع

في 2000/9/22

مجزرة الجنون(*)

كان النعاس المتبقي في عيني زهراء العَبْدلي يستلزم منها أن تدلف إلى مغسلة البيت كي تستقبل صباحها الجديد بوجهٍ صبوحٍ وبعينين صافيتين لا تغشاهما غشاوة النوم غير أنها قبل أن تنهض من سرير النوم سمعت جرس الباب الرئيسي يرنُّ في أعماقَ أذنيها. في البدء تصورته بائع الحليب أو إحدى جاراتها اللائي تعودنَ المجيء إليها باكراً لطلب أعواد ثقاب أو لحاجة يستلزم منها تحضير الفطور، ولكنها حين فتحت الباب فوجئت بشقيقها جعفر يقف متسمراً ودونَ أن يسلم عليها، زرع على شفتيه بسمةً صفراء ثمّ أردفها بقهقهةٍ كسلى فقال:

- قتلت أولادي!

لم تصدق زهراء ما قاله ولكنها بنزقٍ صرخت بوجهه:

- أعوذ باللهِ منكَ يا أخي، ما هذا المزاح المزعج منذ الصباح؟

أجابها بهدوءٍ وكأنه يخبرها بموضوعٍ عاديّ:

- لم أمزح معك فقد قتلتهم فعلاً!

وحينَ راودها الشك بصحة الخبر صرخت بوجهه قائلةً.

(*) نشرت في صحيفة 'الأسبوع الأدبي' الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب في 3 حزيران 1988، العدد (122).

- أجننت؟! إني لا أصدق ما تقول يا جعفر.

أجابها وهو لم يزل واقفا في المكان نفسه:

- باختصار، إن الأولاد أولادي فقتلتهم، وأنا ذاهب إلى المخفر لتسليم نفسي.

وحين هم بالمغادرة طلبت إليه أن يرافقها إلى بيته للتأكد من صحة الخبر فدخلت دارها على عجل وارتدت عباءتها السوداء بسرعة ثم عادت إليه وجنون التصورات يرقص في رأسها:

- هيا، سر أمامي وأرني عرسك!

وسار الإثنان بصمت مخترقين أزقة 'رفيش' الحزينة منذ الصباح الباكر وحين قطعا شارع 'انوشه' أخذت زهراء تشعر بموجة الحزن قد بدأت تطبق كفيها على صدرها، لا سيما أنها أصبحت متيقنة بأن الخبر صحيح لا مزاح فيه على الإطلاق. وبعد لحظات وصلا إلى باب الدار فدخل جعفر قبلها وحين التفت نحو اليمين أشار بيده إلى الجثث:

- انظري لم أكذب عليك!!

في البدء كاد يغمى عليها حين شاهدت الجثث معفرة بالدماء لكنها تمالكت أعصابها فهزت رأسها بصمت ثم طفت على شفتيها بعض الجمل المختصرة:

- سلمت يداك يا شجاع!! هيا إلى أبيك لنخبره بعرسك!

وحين غادرا الجثث المسجاة وسط الدماء النقية كادت الشمس تشرق لكنها تأخرت في ذلك اليوم حدادا على قتل أبرياء لا يزالون كأزهار الربيع المتألقة، وحين بلغا دار أبيها كان الأب قد فرغ من صلاة الصبح توا لكنه قبل أن ينهض لإعداد قهوته المرة شاهد أبنية يدخلان بيته بصمت مخيف مما دعا قلبه أن يخفق وفي حالة عفوية لجأ للاستنجاد بالأسماء الحسنى لعله يجد المفاجآت بعيدة عن الشر غير

أنه لم يفاجأ إلاّ بالشرحين سأل ابنه:

- خير؟

- قتلت أولادي!

سأله الأب مَرّةً أخرى:

- أتمزح، أم تقول الصدق؟

وقبل أن يجيبه جعفر صرخت زهراء في وجهِ أبيها باكيّةً:

- نعم قتلهم فعلاً، وشاهدت الجثث بعيني.

وحين أيقن الأب بأن الخبر صحيح لا شكَ فيه نهض من فوق سجادة الصلاة فوجّه صفعتين إلى ابنه ثم صرخ في وجههِ:

- حمار! أجننت؟! كيف تقتل أولادك!

أجابه جعفر هادئاً:

- إن الأولادَ أولادي فقتلتهم، وأنا ذاهب إلى المخفر لتسليم نفسي.

* * *

ذهب جعفر إلى المخفر فظلَّ الصراخ يملأ بيت أبيه وما إن هم الجيران بالمجيء للتأكد من فحوى الصراخ حَتَّى رأوا الأسرة المنكوبة تخرج من بيتها صغيراً وكبيراً فتتجه باكيةً نحو الحي المجاور وأبو جعفر يصرخ في مقدمتها:

- مصيبة يا ناس مصيبة.

سأله حَنّون الطريفي أحد أصدقائه وقد لحق به في منتصف الطريق:

- ما الخبر يا أبا جعفر؟

أجابه أبو جعفر وهو ما زال مسرعاً.

- مصيبة كبيرة يا حنون.. كبيرة جداً.. كبيرة!

وتبعه الرجل مسرعاً والأسرة لم تزل مشغولة بالبكاء وهي

تمشي خلف أبي جعفر وأمامه:

– طيب عرفناها مصيبة ولكن دعنا نفهم الموضوع فما الفائدة من البكاء على شيءٍ جرى؟

– الأولاد ماتوا، ماتوا كلهم.

– أولادك؟

– كَلاّ، أولاد جعفر.

– أسقطت شظيّة في بيتهم؟!

– يا ليت، لو قتلوا بشظيّة أشرف لنا بكثير.

– إذن؟

– أبوهم، قتلهم!! أبوهم يا حنون.

وحين وصلت الأسرة إلى الجثث انتشر الخبر في الحيين على عجلٍ فأخذت الأمواج البشريّة تتدفق بهيجانٍ مرعبٍ وحين بدأت دار جعفرٍ تغرق بحشود الناس كان جعفر قد وصل إلى المخفر وأخذ يدلي باعترافات ومعلومات تصدق ولا تصدق. غير أن الشرطة الذين شاهدوا الجثثَ بأعينهم ما عادوا يشكون فيما قاله جعفر قبل وقتٍ قصيرٍ وتبيّن لهم أنَّ عبود رجل صادق بكل معنى الكلمة! وحين عاد أحدهم إلى المخفر بعد أن شاهد الجريمة بالعين المجردة توجه نحو جعفر الذي كان لم يزل واقفا 'بنظارة' التوقيف وهوى على وجهه بصفعة مصحوبة بصرخة جنونية:

_أمجنون أنت! كيف تقتل أولادك يا حمار؟

وقبل أن يجيبه جعفر دنا منه شرطي آخر فأمسكه من كتفه وجره بقوة مصحوبة بغضب دفين:

– كيف تضربه يا أحمق؟! وأنت ستصبح مثله غدا أو بعد غد. كلنا سنصبح مثل هذا الرجل! نعم كلنا سنصبح مثله، هذا ما نحصده من الحرب. الحرب دمرتنا. حطمت أعصابنا. جعلت منا أناسا لا

تصدق أعمالهم.. موت.. قتل.. فساد.. خراب.. سرقات.. نهب.. تهديم.. تشريد.. وقبل أن يهدأ الشرطي من صياحهُ سُمع دوي القنابل، فأطلقت صفارات الإنذار، وانطلقت سيارات الإسعاف تملأ الشوارع عواء فلاذ الناس بالفرار وظلّت الجثث الخمس صامدةً في مكانها لا تهزها الانفجارات، ولا تخيفها القنابل وكما أنّ أبا جعفر وابنته زهراء وأمها وأم الأطفال المضرجين بالدماء ظلوا يطوقون الجثث بقلوبٍ مفجوعةٍ وعيونٍ باكيّةٍ وقامات منحنيةٍ حَتّى الانكسار.

تقرير الطبيب الشرعي:

الجثة الأولى: كاظم بن جعفر العَبْدَلي.

العمر 17 سَنة.

سبب الوفاة: ضربة شديدة على الرأس/الجمجمة مهشمة/المخ متناثر فوق الشعر/ الدم متدفق من الفم والمنخرين/وجود جرح في الساعد الأيسر/النتيجة: جريمة قتل.

الجثّة الثانية: ناظم جعفر العَبْدَلي.

العمر 16 سَنة.

سبب الوفاة: ضربة شديدة على الرأس/الأولى في مرتفع الهامة/الثانية على جهة الرأس اليمنى/الثالثة على جهة الرأس اليسرى/الدم متدفق من الفم والمنخرين/باقي الجسد سليم/النتيجة: جريمة قتل.

الجثّة الثالثة: دُنياجعفر العَبْدَلي.

العمر 15 سَنة.

سبب الوفاة: الرأس مثقوب بأداة حادة/عضّات عِدّة في

النهدين/عضّة في الرقبة/آثار دماء في أماكن العضّ/باقي الجسد سليم/النتيجة: جريمة قتل.

الجثّة الرابعة: خالد جعفر العَبْدَلي.

العمر 14 سَنة.

سبب الوفاة: ضربات شديدة على الرأس/الأولى في مرتفع الهامة/الثانية ما فوق 'المخيخ'/الثالثة فوق الأذن اليسرى/الدم نازف/النتيجة: جريمة قتل.

الجثّة الخامسة: وليد جعفر العَبْدَلي.

العمر 13 سَنة.

سبب الوفاة: ضربة عِدّة على الرأس/شعر الرأس ملوّث بالمخ والدماء/تدفق دم من الفم والمنخرين/آثار ضربات على البطن/النتيجة: جريمة قتل.

كتب هذا التقرير أثناء الوقوف على جثث المغدورين المذكورة أسماؤهم أعلاه في بيت القاتل جعفر بن حمد العبدلي الواقع في منطقة (...) شارع (...) زقاق (...) وتم تحريره بحضور السيّد قاضي التحقيق الجزائي في محكمة (...) والسيّد النقيب رئيس المخفر في المنطقة المذكورة وبحضور الأخ (...) بالمنطقة نفسها وطبقاً للقانون الشرعي اتخذت الإجراءات الآنفة فوقعت.

الطبيب الشرعي في مدينة (...)

من أرشيف التحقيق:

- زينب أنت صبيّة لك من العمر عشر سنوات تستطيعينَ أن تحدثيني عما أسأل، فمن الذي قتل إخوتك الأربعة وشقيقتهم دنيا، وكيف نجوت من الموت أنت؟

- بعد أن تناولنا طعام العشاء أنا وإخوتي الأربعة وشقيقتي دنيا وصل أبونا الى البيت ودونَ أن يحدثنا بأيّ كلامٍ جلس معنا في الغرفة نفسها وحين هَمّت أختي بإحضار الطعام له قال لها بنبرة جافة:

- لا أريد أن آكل فقد تعشيت.

وظللنا جالسين دون أن نعمل أي شيءٍ سوى مشاهدة البث التلفزيوني من التلفاز وحين بدأت مشاهد الحرب تبرز أمامنا كان أبي يحدّق إلى التلفاز مضطرباً ودخان السجاير يلفّهُ. وحين شاهدنا أكداس القتلى المضرجة في ساحات القتال ونار القنابل التي تحرق الأخضر واليابس تأفف والدي أكثر من مَرّةٍ ثم رمى عقب السيجارة فوق السجادة التي نفترشها فنهضت شقيقتي دنيا ورفعت العقب المشتعل فأطفأته في صحن الشاي الملقى أمامنا، وقبل أن ينتهي البث نهض والدي فاضطجع على فراشهِ المفروش في غرفتنا وظلّ يدخن دونَ انقطاعٍ وحين انتهى البث في التلفاز خلدنا إلى النومٍ أنا وإخوتي وشقيقتي ولا أدري ما هو الوقت الذي سمعت فيهِ بكاء أخي كاظم فاستيقظت على عجلٍ ورأيت أبي يحتضن شقيقي الباكي ويربت على كتفيه:

- لا تخف بابا لا تخف.

وحين سوى الغطاء فوق شقيقي عاد إلى فراشه فاستلقى عليه وظلت السيجارة بين شفتيه مشتعلة وحين سألت كاظم:

- ماذا جرى معك؟

أجابني وهو لم يزل مذعورا:

- ضربني بالسكين وأنا نائم.

ولا أدري هل نام شقيقي بعد تلك الضربة المخيفة أم بقي مستيقظا. أما أنا فما استطعت النوم نتيجة للرعب الذي سيطر علي

فبقيت مستيقظة وعيناي تختلسان النظر إلى أبي وهو مضطجع على فراشه ودخان السجاير يتطاير من بين شفتيه وما إن مضى ردح من الزمن حتى شاهدته ينهض من الفراش فيذهب خارج الغرفة وبعد قليل يعود وهو يحمل بيده مطرقة كبيرة وما إن وقف على رأس شقيقي كاظم حتى لحظت المطرقة تهوي فوق الرأس ومنذ الضربة الأولى ما عدت أسمع لكاظم أي صوت سوى أنة واحدة انطلقت فجأة ثم خفتت بسرعة!

وحين انتقل إلى باقي إخوتي وأخذ يمارس جنونه معهم بوحشية قاسية استطعت أن أهرب من قربه وأختفي خلف خزانة الملابس فدمت أسترق النظر إليه وهو ما زال ينقض على إخوتي بضربات عنيفة وحين حاولت شقيقتي دنيا أن تهرب من قبضته أمسكها بكلتا يديه فاخذ ينقض عليها بالعض. وحين أنهكها من العض وسقطت على الأرض سحب (الدرنفيس) من جانب التلفاز وطعنها في الرأس بقوة، وحين أصبحت الأجسام جثثا معفرة بالدماء فتح باب الغرفة وأخذ يسحب الجثث إلى خارجها واحدة بعد الأخرى ومن ثم أدخل نربيش الماء إلى الغرفة وقام بغسلها من آثار الدماء ولم أستطع الخروج من مكمني إلا بعد أن سمعت الصراخ بدأ يملأ بيتنا.

الطبيب النفسي:

ترجل من سيارته السوداء هادئا متزنا، فشق الحشد البشري بهدوء ثم دخل الدار واتجه نحو الجثث وحين وقف قربها نظر إليها طويلا، حدق بها بنظرات ثاقبة، أجال نظره في زوايا البيت تفحص وجوه الواقفين، أصغى إلى الضجة بعمق، ثم فتح حقيبته وأخرج قلما

ورزمة ورق أبيض ونظر إلى الواقفين حوله وقال:

- من يعرف عن خصوصياتِ جعفر العَبْدَلي فليقترب مني ويحدثني.

تكلم شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر:

- أنا أعرف بعض الأشياء عنه ولكنها قديمة يا حضرة الطبيب.

أجابه الطبيب:

- لا بأس يا ولدي، إن الأمور متداخلة بعضها ببعض، فتقدم وحدثني بما لديك.

اقترب الشاب من الطبيب، عرفه إلى نفسه كما طلب الطبيب 'الاسم الكامل، العمر، المهنة، المستوى العلمي، العنوان'.

ثم بدأ يتحدث:

- كنت أعمل مع جعفر العبدلي في معمل الحديد منذ أكثر من عامين وقد كان الرجل في بدء التعرف إليه يبدو أنه يعيش حالة صراع داخلي لا يستطيع التعبير عنها حين يُسأل:

- ما بك يا جعفر أيوجد شيء غير الحرب يزعجكَ؟

يحدق إلى السائل طويلاً فيدير رأسه نحو العمل ولا يجيب!

ودام معانقاً لهذه الحالة أسابيع طويلة غير أنها مع مرور الأيام والأسابيع بدأت كثبانها تعلو فوق تضاريس وجههِ شيئاً فشيئاً وذات صباحٍ حربيٍ محتدم المعارك جاء جعفر متجهم الوجهِ، مضطرب النفسِ، متوتر الأعصاب، وبدلاً من البدء بممارسة العمل جلس على صندوقٍ خشبيٍ ملقى في صالة العمل وأخذ يدخن طويلاً كأنه لا يرى العمال الذين أخذوا ينظرون إليه بعجبٍ أو كأنه لا يرى المراقب الصارم ذا اللِّحية الكثيفة إذ أقبل عليه وهو يصرخ بصوتٍ أجش:

- إلى متى تبقى حيواناً يا جعفر، ما هذه الحالة يا جعفر، من

الذي عرَّفكَ إلينا، من جاء بك إلى هنا.. هيا انهض.. انهض ولا تبق ككلب مقعٍ على ذيله.. هيا.. هيا.. هيا.. وظلّ المراقب يزعق ويصرخ في وجه الرجل، تارةً يشتمه بما يأتي على طرف لسانه من كلماتٍ بذيئة، ومهينة، وتارةً أخرى يهدده بالطرد من العمل، أما جعفر الذي لم نلمس منه إلا الصمت طيلة الشهور التي قضيناها معه في المعمل فاجأه بصرخة مخيفة ما كُنّا نتوقعها منه إلا بعد أن رأيناه ينفجر بوجه المراقبِ وكأنه بركان كتم غضبه سنوات طويلة فانفجر مَرّةً واحدةً وأخذت حممه تتناثر في الجوانب كلها:

- لمن أعمل يا سيادة المراقب؟! وكل ما ننتجه يذهب وقوداً للحرب، كل ما نبنيه بجهدنا تهدمه الحربُ، الحرب حقيرة يا ناس، تافهة، محرقة، مدمرة، لا تترك وراءَها إلاّ الخراب والدمار، فمن يصدق أنني منذ خمس سنوات لم أستطع النوم من دوي القنابل، لم آكل لقمتي بهدوء، لم أحصل على أبسط مستلزمات الحياة إلا بالجري وراءها من الصبح حتىّ المساء فكيف أستطيع أن أعمل وأنا أعيش حياةً لا مثيل لها في تاريخ حياتي. كيف لا أجن، كيف لا أنتحر، وكيف لا أموت كما يموت كلب ضائع في الصحراء من الجوع والعطش..

وأنتم زملائي العمال، يا من تجيدونَ الفرجة بصمتٍ قاتل، دعوني أكلمكم بأوضحِ الكلماتِ وأنا مؤمن بما أقوله: أنتم لستم أكثر من ثيران حراثة تحرث من الصبح حتّى المساء فتملأ بطونها بالعلف الجاف ثم تلوي أعناقها وتنام.. وأنت يا سيادة المراقب أريد أن أقول لك كلمتي الأخيرة وأنا أعرف أنَّ جزائي إزاءَها هو الطرد من العمل، لكنني قررت أن أقولها وليحدث ما يحدث: أنتم سبب مأساتنا من الألف إلى الياء!

وطرد جعفر فعلاً من العمل، ومنذ ذلك الحين لم أعرف عنه شيئاً.

* * *

المعلومات التي أدلى بها الشاب جعلت الطبيب النفسي يمسك بالخيط الرئيسي المؤدي الى دوافع الجريمة مما دعاه أن يستمر بتكثيف التحقيق لأجل الوصول الى الحقيقة المطلوبة، ولهذا وجد أنّ التحقيق مع المقربين إلى جعفر هو الوسيلة الأنجح لمعرفة الأسباب التي دفعته أن يرتكب جريمة فريدة من نوعها في تاريخ المنطقة، وخدمة لهذا الغرض طلب إلى عائد العبدلي أحد أشقاء جعفر أن يحدثه عما يعرف عن شقيقه لا سيما بعد طرده من العمل فأجابه عائد متحدثا:

كان شقيقي معيلا لأسرة كبيرة تستلزم منه الغذاء واللباس تريد منه العلاج والسفر، تطلب منه كما يطلب من أي رب عائلة من الجانب المادي حتى الجانب المعنوي غير أنه بعد أن طرد من عمله ونتيجة لأزمة الحرب أصبح عاجزا عن تلبية أي طلب من مقتضيات حياتها علما أن الرجل لم يجلس مكتوف الأيدي عن السعي من أجل الحصول على ما يسد احتياجاتها اليومية ولكنه أينما يذهب يصب بالخيبة والإخفاق. مرة حاول أن يعمل في المحطة الكهربائية وما إن مضى أسبوع على عمله حتى جاءت الطائرة ودمرتها. وحين عمل في معمل آخر ما يقارب الشهر الواحد، قصف المعمل كبقية المعامل وتوقف عمله، وعمل حارسا ليليا بأجر زهيد فقام صاحب العمل وطرده بعد عشرة أيام بحجة أن المعمل لا يحتاج إلى حارس ليلي بعد توقفه عن العمل الليلي. وهكذا ظل جعفر يطارد العمل من مكان إلى مكان ولا يحصل على عمل يجعله متمكنا من تلبية احتياجاته واحتياجات أسرته اليومية. وإذا ما حصل على عمل في مكان ما لا يستمر ذلك أكثر من أسبوع أو أسبوعين أو أقل من شهر فيطرد أو يسرح وقبل أن ينهي عائد حديثه عن مشكلات جعفر قاطعه الطبيب سائلا:

- حين يعود جعفر من العمل مطرودا أو فاشلا في عملية

البحث عن عملٍ آخر ماذا تكون ردود فعله في البيت؟

- لم يعد إلى البيت طبيعياً على الإطلاق.. كان يعود مضطرباً، متوتراً، فما أن يدخل البيت حتىً يتغيرّ طقس الأسرة من لونٍ إلى لونٍ آخر. مَرّة يزعق في وجه أطفاله دونما سبب، مَرّةً يضرب زوجه دونَ سببٍ أيضاً. مَرّة يغلق بابَ الغرفة وراءَه فينام دون أن يكلم أي واحدٍ من أسرته. ودام يمارس هذه الحالة مُذ طرد من عمله في المرةِ الأولى علماً أن زوجه المسكينة نتيجة لما نزل بها من أذى اضطرت إلى تركه مَرّات عدّة لَعَلَّه يكفُّ عن ممارساته المؤذيّة ولكن ذلك لم يجد في تغيير تصرفاته اليوميّة وأنه في الليلة الماضيّة وقبل أن يقتل أولاده ذهب إليها في بيت أبيها وطلب إليها أن تعود معه إلى بيتهِ لكنها حين رفضت العودة معه رفع سبابته بوجهها قائلاً:

اسمعي أقول لك كلمتي الأخيرة، إذا رفضت العودة معي سأقتل الأولاد جميعاً، نعم سأقتلهم!

وحدث ذلك فعلاً.. وصمت عائد العبدلي وظلَّ الطبيب يكتب.

نتائج الأحداث:

1- بعد الشروق بنصف ساعة، توقف القصف، وتلاشى دوي الانفجارات، صمتت صفارات الإنذارات، وتوقفت سيارات الإسعاف، وحضر قاضي التحقيق، والطبيب الشرعي ورئيس الحرس والطبيب النفسي، واستكمل التحقيق، وأمواج الناس لم تزل تتدفق من كُلِّ جانبٍ ومكان.

2- بعد الظهر خَرَجَت من بيت جعفر العبدلي خمسة نعوشٍ حزينة محمولة على الأكتاف، مغطاة بالقماش الأسود، ودفنت الجثث في مقبرة الشهداء وأُغلقت دار جعفر إلى وقتٍ غير معروف.

3- أصيب محمد العبدلي بحالةِ حزنٍ شديدةٍ، ثمَّ اكتأب، ثمَّ مرض، فمات بعد شهرين.

4- أشيع خبر بأنَّ حَسناء العبدلي أُم الأطفال الخمسة قد أُصيبت بمرض الجنون وأدخلت مشفى الأمراض العقليّة.

5- أطلق سراح جعفر العبدلي بعد ستة شهورٍ باعتبارهِ مصاباً بجنون آنيٍّ فظلَّ معتكفاً في دار أبيه ويدخن في الليل والنهار.

6- طالب حنون الطريفي بوقف الحرب وبإعدام جعفر العبدلي وبعلاجٍ عاجلٍ لحسناء العبدلي ثمَّ ذهب إلى مقبرة الشهداء ووضع على كل قبرٍ وردةٍ حمراء وبكى..

كانون الأول 1987

جبَل الرقاينة

حَصَل المزيدُ مِن الخير حينَ اكتشفت أن حمل الجبل مَعي أفضل مِن البقاء في مكانه. ولذلك استعنتُ بعروة ابن الورد فحملته على كتفي ومشيت! في بادئ الأمر شعرتُ أنه خفيفٌ حينَ اتكأ على كتفي الأيمن. وإذ وضعته على كتفي الأيسر شعرتُ أنّ ثقله بدأ يرتفع شيئاً بعد شيء. ومع هذا الشعور بقيتُ أمشي في طريقٍ طويلٍ مُتَعرّج تارةً يخترق الجبال المملوءة بالوديان والديدان والوحوش وتارة أخرى أدخل غابات كثيفة تعترضني فيها أنهار وأغوار تنتشر فيها أفاعي الكوبرا وثعالب ما رأيت مثلها في جميع الأسفار القديمة إذ كنت رسول سلام بين العيلاميين المقيمين في أرض سوسة والآشوريين الموجودين في أنحاء نينوىَ.

وعلى الرغم من أنّ الحَدَثَ الأخير كانَ قد مَرَّ عليه ما يقارب القرون الثلاثةَ والمئة عامٍ أيضاً فإنني مازلتُ أتذكّر صوتاً هَتَفَ خلفي وأنا أُحاولُ العبورَ إلى العراقِ من منطقة (الفكّة):

- يا ناس، يا بَشَرَ إنَّ الرجلُ أخذ الجبَلَ وسَيبيعَهُ إلى قوى أجنبية مقابل المال!

قلت له ومازال الجبل يرهق كتفي الأيسر:

- إن الذين يحملون الجبال لا يبيعونها أبدا.

قال:

- وإذا كنت حريصا إلى هذه الدرجة التي لا يصدقها الناس فلماذا تحمل 'جبل الرقابية ' وتمضي به إلى حتف مجهول؟!

قلت له:

- لأنه أهم من حياتي وحياتك وأهم بكثير من المال وسلطة التجار.

قال:

- وإذا مُنحت كرسياً في وزارة الشاه؟

قلت له:

- لا كرسي الوزير ولا رئاسة الوزراء ولا تاج الملكِ يحرضني على بيع الجبل.

قال:

- يبدو أنَّكَ عنيد؟!

قلت له:

- العناد في سبيل الحقِّ حقٌّ مشروع. ولذلك إنني عنيد إلى آخر لحظةٍ من حياتي!

2

بعد شهرٍ تماماً لاأقل ولا أكثر قرأت في إحدى الصحف وأنا خلف القضبان أفكّر بمصير الجبل الذي صادروه:"أمرٌ لا يصدق. فلربما أنه أسطورة من الأساطير التي كُنّا نقرأ عنها في كُتب التاريخ القديم": إن رجلاً ناحلاً حافي القدمين حملَ على كتفهِ جبلاً من جبال 'الأهواز' فسار به نحو العراقِ ولمّا حاول دخول الأراضي العراقيّة من ناحيّة 'منطقة الفكّه' الواقعة في 'محافظة ميسان' اعترضته شرطة الحدود وصادرت الجبل المملوء بالينابيع والأشجار والعشب والغزلان

وكي لا يتعرّض الجبل هذا إلى التفكك أو التفتت أو الانهيار قامت الشرطة المذكورةُ بوضعه في حقيبة يدوية فأغلقتها عليه وإنه الآن إلى جانب الرجل المسجونِ في سجنِ المجانين والمَعْتوهينِ وأصحاب الأحلام البالية والأقلام الخاويةِ ومن يريد التفرج على الاثنين عليه الاتصال بمديرية السجنِ الواقع غرب العاصمة على بعد مِئةٍ وعشرين كيلو متراً.

وحاولتُ أن أبكي فَلَم أستطع!

وحاولتُ أن أضحكَ فَلَم أستطع!

وحاولت أن أمزق الجريدةَ وأصرخ بأعلى صوتي ففشلت في ذلك حينَ اختطفهما السجانُ منيّ وقال لي:

- عُدّ إلى قاووشك وكُن مؤدباً وعاقلاً وإياك أن تقوم بأيةِ حَرَكَةٍ غَريبةٍ لا تحصد من ورائها إلا الذي ستندم عليه حتماً.

قلت له:

- أتريدني أن أكون مهذباً أكثر من هذا التهذيب يا شرطي؟! أما تدري أنني الآن مهذبٌ إلى حَدٍّ الخرافة والعجب؟!

قال:

- أجل! إنّ هذا التهذيب لا يكفي أبداً. وعليك أن تعرف أن المطلوب منك هو أن تعترف بأنك سرقت حماراً أعور وكأنك لا تعرف أي شيء عن قصة الجبل!

3

مساءً حين أويت إلى فراش النوم الذي هو بطانية عسكرية ووسادة إسفنج ولا أكثر سألني مجنون ينام إلى جانبي:

- ما الذي حدث بينكَ وبينَ الشرطي السجانِ صباح اليوم؟

قلت له:

ببساطة إنهم بعد أن صادروا الجبل مِنيّ ووضعوني في هذا السجن الذي تعرفه أكثر من غيري قاموا بوضعه في حقيبة يدوية فلم تدخل المنطق أبداً. فلذلك غضبتُ وحزنت وشعرتُ بألمٍ بدأ يعتصرني من الهامة حتى أخمص القدمين.

قال المجنونُ:

- لماذا تغضبُ؟! ولماذا تحزن؟! ولماذا تتوجعُ؟! وإن الأمر كله جائز ومقبول! إن الجبل يا سيدي ليس بالأهم من العواصم التي حنطوها وقدموها هدايا إلى هذه الدولة أو تلك! وإن البحارَ التي تعرفها بأحمرها وبأزرقها وبأبيضها عبؤوها بالصهاريج فبعثوا بها إلى المكسيكِ والبرازيل دون مقابل! وإن الشعوب التي قاومت الاستعمار وانتصرت عليهِ دجنوها إلى درجةَ الصمت المخيفِ وما عادَ لها صوتٌ يسمع!

قلت له:

- إنني أصدق ما قلت وأتفق معك على كُلِّ شيءٍ ولكنني لا أصدق ولا أقبل بأن يوضع 'جبل الرقابيّة' في حقيبةٍ يَدويةٍ ثم يُسجن معي في سجنٍ للمجانينِ وبعد ذلك يُعرض للفرجةِ وكأنه لم يكن ذلك الجبل الذي قاوم الزلزال وانتصَرَ..

الشنفرى*

ما إن أمال بروحه نحو السهوب حتى شعر بالنار التهمت أصابعه، فكعبيه، فساقيه، فركبتيه، فوركيه، فوسطه، فثدييه، فرقبته، وقبل أن يتداعى على الأرض جثة محترقة نهض بانفعال خفي فدلف نحو البحر

ودلفت العيون معه!

وغسل وجهه

وحدقت العيون إليه! وعاد إلى مقعده

وعادت العيون معه!.

.....

.....

ودون أن ينبس ببنت شفة. ودون أن يقول لهذا وذاك: إنني أحترق! مدّ كفه اليمنى إلى جدار البيت فأحدث ثغرةً بأطراف أنامله، وفي خلالها نظر إلى السماءِ والأرضِ وعبرها لمح الحياةَ والموتَ

---

* نشرت في مجلة الكاتب الصادرة عن اتحاد الصحفيين الفلسطينيين العدد 14 – شتاء 1989 .

ومنها وإليها تجوّل في المدنِ والأريافِ وبها استعان بأن يلتهم الأرضَ فالتهمها

وانحنى على البحر فشربه

وأومأ إلى السماء فهبطت

.....

.....

وحين كان الجالسون عاجزين عن رؤية ما حدث حدق إليهم بعينين جاحظتين فقال:

- تف!

هذا ما حدث في بادئ الأمر. فنهض الشنفري مَرَّةً أخرى وتمشى في الغرفةِ من يمينها إلى يسارها. فنظر إلى الزوايا والمرايا. وتأمل لوحة العناق والسهبِ. وتطلع إلى مسلسل التلفاز فمقته. ونظر إلى الناظرين إليه فسبهم:

- أنت الشبيه بخروف أعلاف، منذ أن خرجت من السجن تحولت إلى رجلٍ بذيءٍ وسخيفٍ بل ساقطٍ ومتخاذل. تلهث وراء المال بأقذر الطرق. وتبني حياتَكَ بأوسخ الأعمال. فعاشرت المهربين والمجرمين والخونة. ترتاد المباغي وأمكنة القمار ولا تخجل! وإن أسخف ما فيك الآن تخاف على زوجتكَ من أبشع الرجال. فسكت برهةً ثم استأنف كلامه: تعرف لماذا؟.. لأنك تشعر بضعفٍ أمامها.

وتشعر بضعف أمام الآخرين

وتشعر بضعفٍ أمام نفسك أيضاً!

وقبلَ أن ينتقل الشنفري إلى الآخرين. وقبل أن يبصق بوجه الخروف قال له: أنت ساقط! فبصق في وجهِ الشبيه بوجه دُبٍ جبليٍ وقال له من الأفضل أن تموت يا نذل لعل الموت يضع حداً لأعمالك المخزية!

وأنتِ!

أقصد البقرة الرابضة في المطبخ. صاحبة المال المعبأ بالأكياس. والتي الآن نَسيَت المعلقات. وتركت الناس الشرفاءِ والأدَب المقارن. والتي تتباهى بسقوط زوجها أمام التجّار والسّفلة. والتي لا يهمها من الحياةِ إلا السرير وأفلام الانحطاط. لا أريد أن أقول ما طلبتِ منّي فرفضت. ولا أودُّ أن أقول بأنني أخطأت بما تصورته فيكِ قبل أن تخلعين ملابسك وتركضي في الشارع عاريةً فتصفقي وترقصي أمام الناسِ فتتامي على التراب وترفعي فخذيك لمن يشتهي!

وحين كان الصمتُ المريبُ يخيّم على المرأتين والرجل الخروف إذ كان سيفُ الشنفرى يَفرض ذلك اتكأ الشنفرى على الجِدار من شِدَّة الانفعال فتأفف ثم تأوه وضحك ثم بكى ،؟؟؟ ثم قال: من أنتِ أيتها العنزة الهزيلة؟! من الذي قال لك أن تسبي المشردينَ. وتستهزئي بالأنبياء والمناضلينَ. وتقولي لفارغي الرؤوس ولاعبي الورق، إنَّ (النَوَر) هم الذينَ يسكنون المخيمات! والذين يحملون الكتب! فتضحكين بأعلى صوتكِ. ولا تخجلين من بذاءة لفظك. وتخلطين لعاب الفم برفع الثياب. وتهزينَ الكفل والأكتاف. وتعودينَ إلى الكلام الوقح مرةً أخرى: عيني يا عيني! يحرسهم النبي! ويحفظهم الولي. غذاؤهم الحمص. وعشاؤهم الفول. ويريدون منّا أن نترك... ونقول:

- نعم للصعاليك وقصائدهم!

- نعم للسيف والميزان!

وظل الشنفري يرعد ويهدر. ودامت المرأة ساكتةً كسكوت الرجل. واستراح الشنفرى بنظرةٍ إلى الطفلة الجميلة، وقارنها بأقواله وأفكاره. والتفت إلى المرأة الثانية وشبهها بالبقرة نفسها. وقبل أن ينتقل بحديثهِ إليها، عاد إلى المرأة الأولى بالحديث نفسه: هذه السجادة التي تفترشينها يجب أن تسحب من تحتك وأن تعطى لمن

يستحقها. والفواكه المكدسة في البيت يجب أن تصادر وتعطى للأطفال الذينَ لا يحصلون على لقمة الخبز. والأموال المكدسة في الصندوق سآخذها رغماً عنكم وسأبني بها مستوصفاً في قرية "أبي حميِّضَة" وسأكتب على بابه:

"بنى هذا المستوصف بمالٍ صادره أحد الصعاليك من بيت مُهَرِّبٍ يمتهن التجارةَ. ويَعْمل في التجسس والتزوير. وإنه تزوج من امرأةٍ جعلت منه خادماً مطيعاً. وعبداً خضوعاً. ورجلاً، ينام وقت تشاء!

ويستيقظ وقت تحب!

فيخرج بإرادتها! فتقول له أحي فيحيا!

مُت. فيموت! وحين يعاندها تصفعه على الوجه فيذعن!!!

وخرج الشنفري من البيت، دون أن يكلم المرأة الأخرى لأنه واثق من نفسه بأنه سيراها في مكانٍ ما وسيعطيها الحق الذي تستحقه!

الحلم الرابع(*)

ظلت عقارب الهواجس تدق في خلاياه. تحيله إلى هيجان مرعب. تأخذ منه الهدوء والاستقرار. تمنحه إيقاع الزمان المرحين يشعر. حاول في الصباح أن يتخلص من ذلك الألم ولم يستطع. قرأ في المكتبة وتجول في الشارع وانتهى وقت الظهيرة ولم تنته الحالة أيضا!

عاد إلى بيته. تناول وجبة الغداء بارتباك؟ أطل من شباك الغرفة. سرح بعينيه نحو الشارع. أمعن في النظر إلى الصبايا. تغزل بشعورهن. ربط خيطا رقيقا بينهن والسماء. جذبته السماء بزرقتها. سرح في فضائها الواسع. التقى وأسراب الحمائم. نادمته أسراب السنونو. والحالة بقت كما هي في داخله تأخذ منه الهدوء وتزرع في خلاياه هيجانا مرعبا!!

قال لنفسه: لأجرب ما سمعته من طبيب نفسي ذات يوم. لعلها تنتهي بعد أن أكتبها على ورقة بيضاء فأمزق الورقة وأحرقها!

وأغلق الشباك. أسدل الستائر. أشعل الأضواء. سحب كرسيا

(*) نشرت في جريدة الانطلاقة العدد 208.

من زاوية الغرفة. وضع الكرسي خلف المنضدة. جلس وأخذ يكتب:
لا أعرف كيف دخلت المدينة؟ لم أنتبه إلا وأنا وسطها. الشوارع مقفرة. المحلات مغلقة. محلات تلفها الأنقاض. البنايات كذلك. اخرى في حالة التداعي. آثار رصاص على الجدران. شظايا قذائف هنا وهناك. أشلاء بشر متناثرة. أجساد بشرية متعفنة. قطط تموء بوحشية. كلاب تأكل اللحم المتعفن. قلت لنفسي: يا إلهي متى حدث هذا؟! إنها حرب! حرب لا شك فيها على الإطلاق. لكن للحرب صدى مدويا. كيف لم أسمع بذلك. لماذا لا أعرف شيئا عن اندلاعها؟ عن نهايتها أيضا! أين كنت أنا؟ لم أكن موجودا على الإطلاق. يجب أن أتألم الآن. أن أبكي. أن أنتحر. ليس للحرب وحسب. ليس للأشلاء والدمار. ليس لل...، بل لنفسي أيضا. نفسي التي نامت على جرحها. توسدت جبلا في التمادي. أسهبت في الحلم طويلا. نسيت ذاتها كثيرا. ولكن كيف أخرج الآن؟ من أي شارع؟ من أي زقاق. إن الشوارع لم تعد كما أعرفها. الساحات تغيرت ملامحها، الأحياء أصبحت أنقاضا. هذا الدمار أربكني. ضيع شرقي وغربي. جنوبي وشمالي. سمعت في داخلي صوتا يهتف:

- الوقت، الوقت يا علي

- 'أصغيت'

- الوقت، الوقت يا علي.

صرخت بجنون:

- الوقت أي وقت يا مجنون!! إنها الحرب. دمار يلف المدينة. أنقاض تغمر وجهها. دخان يفرق السماء. ضباب كثيف على الأطلال. أصوات موحشة هنا وهناك. كدت أجن. أنهار أربكتني المشاهد الغريبة. زرعت الرعب في نفسي. جعلتني أبحث عن مخرج. لم أستطع ذلك على الإطلاق. الاتجاهات مفقودةً. الضباب كثيف. الدخان يفرق السماء. القطط تموء. الكلاب تنهش بعضها بعضاً. عواء ذئاب. أصوات لا أعرفها. دويٌ انفجارات بين الفينة والأخرى. كُلُّ شيءٍ سيئ للغاية. ينشئ في الروح الدمار. يجعل الارتباك من نوع جديدٍ. يخلق الدهشة

من صور الغرائب. كدت أجنُّ. أنهار. أتداعى ولكنني قلتُ لنفسي: لا لن أستسلم. لن أسقط. عليّ الآن أن أصمد. أن أفكر. جيداً. أن أتماسكَ. أن أظهر بالمظهر اللائق أمام نفسي. في الشدة يعرف الإنسانُ. يعرف نفسه. أصدقاءه. صحيح أنها الحربُ، ولكنها لم تكن أولى الصعوبات وقد رأيت أمثالها من زمان. صارعتها بشدَّة. راقصت نيرانها بانتصاب. أحلتها إلى رمادٍ خافت. سكبت على الرمّاد ماءً. زرعت فيه ورداً. خضرٌ الورد وبرعم. تفتح البرعم وأينَع. وحين استيقظتُ من النوم وجدت الشمس قد أشرقت والعصافير أخذت تزقزق. وثمة حمامة بيضاء كانت تهدل على الشجَرة المجاورة لشباك غرفتي.

المفاجأة(*)

اعتراف مختصر:

لم أفكر في يوم من الأيام بأنني سأستسلم لقوةٍ ما ولكن ما حدث في الليلة الماضية كان مفاجئاً ومدهشاً بل مؤلماً ومحزناً أيضاً!

لقطة عن الماضي:

ولا أدري ما الذي جعلني أنهار وأستسلم بهذه البساطة التي لم تكن بسيطة كما تتراءى لي الآن. أقول هذا وأنا أعرفُ حجم التناقض بين الاثنين. أقصد بذلك: 'التشوه الشبيه بغموض داكنٍ حتى الاحتضار!' و'الوضوح المُطرز بصفاءٍ كاملٍ حتى الحياة'. فلهذا وليس لهذا في الوقت ذاته أجد ما يفرض على الالتفات إلى ما يجعلني أتشبث بوقفةٍ ثابتةٍ تجاه خطٍ مستقيم كي أستطيع الشعور المستمر

(*) نشرت في جريدة الانطلاقة العدد 212 الصادر في حزيران عام 1989.

بطعم أغنية سبقٍ وأن أنشدتها مذ راقصتُ مهرتي الشقراء في جبال التينة وبازان ومنذ أن رميت ثيابي البالية وارتديت ثياب الأنبياء والأولياء، الأمر الذي جعلني أرفضُ وأنبذُ نبذاً قاطعاً كل ما يتعلق بالانعطاف الصغير والكبير نحو الجهتين المهترئتين، أقصد بهما جهة الخلف واليمين... الجهتان المرتبطتان ارتباطاً وثيقاً بيميني التي بترتها منذ 'عقدين إلا سنة' فرميتها في مواقع الأفيون الخانق أمي مذ حكمها هتلر الهندي عام 1978، وفي أودية الوحوش والديدان منذ كنتُ صبياً يصارع الظلام الأول في الرمال والأهوار' وفي الجبال والغابات وفي سفوح منحتني الصدق والنقاء وعلمتني الصمود والكبرياء ولكن ما حَدَث في 'الليلة الماضية' كان مفاجئاً ومدهشاً بل محزناً ومؤلماً أيضاً!

البداية:

لم يكن رابع معنا على الإطلاق. كنا ثلاثة فقط. أنا وموسى وصديق الطفولة جاسم البنداوي. وللبنداوي قصةٌ طويلة لا أستطيع التعبير عنها بشكلٍ وافٍ ضمن هذه القصة. ولكنني أحاول أن أوجز عدة عقودٍ عبر أسطرٍ لابد من اختطافها من أكف حدثٍ راهنٍ لكي أجعل قارئي يجاهر بإيجاد يمٍ فرض العوم والغوص عليَّ لا بالطريقة المنفردة كما تعود عليها العديد من صيّادي الكلمات والنغمات اللاهثين وراء الكأس والجنس، وإنما وفق ما سار عليه من سبقني كصديقنا الفرنسي الملقب بـ' الصرح الشامخ' ومن خرج من معطفه على شكل ينبوع عذب فأصبح يناطح السحب لا في سماء الروس والطليان وحسب وإنما في كل قارة صار له صوت مدو وتعبير محبب وأم تبيع الحليب في الساحات فتنجب الأبطال 'لا بافل'(*) بعد 'بافل' وحسب

(*) بافل: إشارة على بطل رواية مكسيم غوركي 'الأم'.

وإنما فوج يتلو فوجا آخر. وسحبا من الغيث لا تمطر إلا على الزيتون وأسراب اليمام فقط.

عودة إلى البنداوي:

والآن في إمكاني العودة إلى البنداوي والحديث عنه:

إنه صديق الطفولة كما قلت آنفا. وقد لعبت معه في سني الصبا حتى دخلت العام السابع عشر من عمري. وبعد أن انفصلنا انفصالا طبيعيا في (غلطة الهجرة الأولى والثانية) لم أره إلا مرة واحدة فقط.وكان ذلك في السنة السادسة من العقد السابع لقرننا الحالي حيث حدث ذلك بعد أن أعدمت قافلة الأفكار القديمة في أقصى الجنوب العربي وعدت إلى 'مثواي الأخير!' بخيول القرن العشرين ممتطيا (طائر الرخ*) مارا بالجبل الأخضر! والمدينة ذات الاسم المركب! وبعض أجزاء من الربع الخالي. والبحر الأحمر. وثمة رمال وإمارات ومداخن نفط تصدر الوطن بالجنس والويسكي وتستورد الخراب والدمار فتتركنا على الرمل نصطاد الطيور بالكلمات' ويتكرر المألوف أكثر من الأول فننام ولا نستيقظ!

الوسط:

وحين تهضبنا وادي الألم كان البنداوي يقف على جانبي وكذلك موسى يقف في الجانب الآخر. والأعداء الذين 'يلاحقوننا دوما' قد أصبحوا على مقربة من أنظارنا ولكنهم قبل أن يصلوا وادينا استطعنا الوصول على جهته الأخرى وحين أصبحوا قبالتنا بعد أن مضى بعض من الوقت كنا قد قسمنا أنفسنا على ثلاثة مواقع استعدادا لخوض معركة صممنا على كسبها بأي شكل من الأشكال. وقبل أن نبدأ المعركة بوقت قصير سمعت البنداوي يقول: 'يا موزان

---

* طائر الرخ: طائر خرافي جاء ذكره في حكاية شعبية متوارثة.

الضمد' قبل أن تطلق النار حاول الالتفات عليهم من الخلف ونحن بدورنا سنحجب الأنظار عنك بكثافة دخانية ريثما تستطيع الوصول إلى ذلك التل المجاور!

النهاية:

ولأنني كنت وما زلت مغمورا بطيبة البدو الرحل، وباطمئنان الرعاة الطيبين نسيت خيانة الأصدقاء القدامى ومن سار على نهجهم من بعض../ فنفخت عضلاتي المتعبة. وحشوت رأسي بالأهازيج القديمة. وأخذت أتسلل زحفا عبر الأشواك والصخور الجارحة وما إن وصلت على مقربة من التل حتى لمحت الوادي قد أصبح عسكريا فوق عسكري. وإن صديقيَّ الذين توقعت مساندتهما أصبحا جزءا لا يتجزأ من الأعداء وبدل أن أهاجم من جهة واحدة هوجمت من عدة جهات. فقاتلت قتالا منفردا. ودافعت دفاعا منعزلا. وحين نفدت ذخيرتي بعد أن أصبت بجراحات عميقة نسيت أن أنقذ نفسي بآخر ما تبقى لدي من الطلقات. الأمر الذي جعلني أقع أسيرا بأيدي أعداء لا يرحمون الجريح. وجبناء لا يحترمون الأسير. وحين التفت على الأشخاص الذين أخذوا يقيدون يدي خلف ظهري رأيت بينهم موسى والبنداوي فرحين مبتسمين فأخذا يقهقهان بأصوات عالية. ويقذفانني بكلمات سخيفة بذيئة. وما إن أفرغت في وجهيهما محتويات فمي المدمى حتى وجدت جسدي قد تمزق برصاص تدفق من بندقية البنداوي التي اشتريتها له بأقراط أمي الذهبية قبل أن أغادر الوطن وأدفن جثتي في مزابل المنفى!

آب 1988

مأتم الهجرة(*)

إنه الزمان المر! صاحب النكسات والنكبات. صديق الليل الطويل والنهار الحزين. لا يمت بصلة إلى البحر. ولا ينتمي إلى قمم الجبال. هو المقنع بذاته! وذلك القبطان الذي خان ويمكن أن يخون! كان منذ النحيب الأول. أو الأنة الأولى. أو الصرخة الكسلى. يحاصر هذا الإله الصغير. يشاكسه بكل شيء يود أو يريد. فينهال عليه بضربة. أو طلقة. أو غرابة أمر لا يعرفه. وكذلك الأمر لا يعرف هذا الإله من أين أتى أو إلى أين يريد ولماذا يعشق الأسفار كما يحب المكوث!

هذه قصص أو شعر أو روايات سمها وفق ما تشاء ومثلما تحب ولكنك مطالب بأن تغوص في بحر مخيف لتستخرج اللؤلؤ من عمق البحار ومن ثم لك الحق الكبير في أن تحاسب 'بوذا' على الصغيرة والكبيرة!. ولك الحق الشامل في أن تعاقب سقراط أو تحاسبه أيضا! لأن سقراط انتهج السير نحو الأفق. ولأن سقراط أعلن الانتماء إلى ما كان يخالفه دون أن يدري!!

(*) نشرت في جريدة الانطلاقة، العدد 224 الصادر في حزيران 1990.

في بادئ الأمر حدّث نفسه قبل أن يقول ذلك لأحدٍ ما. ومن ثم أعلن الهجرة الأخرى بعد أن وجد في 'النجاشي' متسعاً للفناء الخفيف كي يقول للآخرين إن قريشاً لا تريد ابنها البار. وإن مكةَ الآن تبتغي شلّة التجار فآثرت اللجوء إلى الحبشة كي أصلي لله ركعتينِ فأنتظر آيات الرسول/ ولأكن أني المهاجر الدائم..

ولأكن أني الغريب في هجرة الإسلام..

واختلفت الموازين على رأسه!

واعتدلت الموازين على رأسه!

وظلّ 'علي بن ندّها' كالمهاجر الدائم. يعيش في منفى ويموت في منفى! ويحيا من جديدٍ ثم يموتَ مرَّة أخرى! ويموتَ مرَّةً ثالثة فيحيا من جديد!. وتستمر الاسطوانة على الدوران نفسه الأمر الذي يجعل العداد عاجزاً عن إحصاء عددِ المرّات التي مات فيها علي والغريب في الأمر أنه عجز أيضاً عن إحصاء كلِّ ما كان يلّم بهِ من حياةٍ في هذا المكان أو ذاكَ وفي هذا الزمانِ أو ذلك!

وذات صباحٍ من أصبحة المنفى الثاني آثر اللجوءَ إلى حديقة الأزهار المتألقة فدخلها من الباب الأول، فالثاني وانتصب حزيناً عند الشجرة التي ينتمي النظر إلى خضرتها فتأمل أغصانها. ونظر إلى أوراقها. وغازل جذرها وقال لها:

- كم أنت زاهية وجميلة اللون؟

ابتسمت بوجهه قليلاً! نظرت إلى اليمين والشمال ثم قالت:

- ما هذا الإطراء الجميل؟

- إنه الحقيقة وكان عليَّ أن أعترف بذلك!

وأخذت من يده واقية الشمس والمطر. وأعطته رقماً أصغر من عمره فوضع الرقم مع الكتبِ ووضعت الواقية مع دروع الحربِ والاشمئزاز!. ثم عادت إليه وهو ما زال واقفاً وما زال ينتظر لجة بحرٍ

لتقذفه في شاطئ مشمس ومقمر، لكي يستظل، بأشجار السرو والصنوبر!

- أراك مبتسما وهذا يعبر عن ارتياحك؟

- مخطئة أنت لأن ذلك يعبر عن حزن عميق ولا عن الفرح.

- خير؟

- ...!

ولمحت في صمته شيئا يشبه لغزا كبيرا يجادل نعش زمان تحتويه الكآبة وتلفه الوحشة ولا يمشي وراءه إلا كلب وعجوز وامرأة جميلة ' اسمها سلمى! '

- قل، ما بك؟

- سأحدثك عن ذلك في لحظة أخرى.

- متى؟

- وقت الإستراحة!

واتفقا على نزهة في زوايا الحديقة. فوقتا ساعتيهما على ضوء الشمس وقررا أن يحتسيا الفرح قبيل الظهر. وبعد أن نادم على فلاسفة اليونان ما قبل الميلاد. وبعد أن ضحك مع كونفوشيوس' وأتباع 'بوذا' نزل من قمة (بازان) إلى ضفاف (ألكرخة) فوجد آلهة الحب تتأمل الماء بعينين غجريتين وتشاكس الضفاف بجمال ساحلي تأطره الحروف العربية بنطقها الأصيل المعبأ بود وبأريحية مفعمة بشذى الأزهار المحيطة بها وبتعبير يفوح من كلماتها فينهمر على علي كرذاذ مطر في أيام الخريف:

- تأخرت خمس دقائق

- أخرني سقراط ولا غيره

- وكيف كان ذلك؟

- 'موقفه من قرار المحكمة!
- أية محكمة؟
- 'محكمة السماسرة والقوادين والجبناء!
- أأنت تتكلم بصفاء أم هناك...؟!
- بصفاء كامل، وأعتقد أني الآن على أحسن ما يرام من الناحية العقلية والجسمية.

وصمتت وظلت تتأمله بتعجب. واستمر التأمل بشكل مثير للدهشة والاستغراب. واتجهت نحوهما العيون. واتكأت عليها الأقاويل والنميمة والشتائم وألسنة التجار والكتاب والعاهرات والمخبرين والمجرمين وباعة الحشيشة والعملات المهربة ولا يستثنى من ذلك قوادي الرجل التافه وسكرتيرته الرعناء!

- على أية حال سنتحدث عن ذلك 'في سفح الجبل.
- وأنا أحب 'السفوح' أيضا.

وأخذ بأيديهما شيئا وذهبا نحو السفوح. وما إن جلسا هناك حتى امتد أمامهما أفق أزرق صاف. وجبل مرتفع. وساحة خضراء. وأبنية وأسيجة. وأسوار. وأزهار. وأشياء لا تعد ولا تحصى وكان خلفهما رجلان من نوع آخر!

وجلسا إلى جانب صخرة فوضعا بينهما كأسين أو صاروخين أو قنبلتين أو شيئا يفتقر إلى التحديد سمه ما شئت المهم أنه شيء من بد يهات اللقاء!
- لم أنت حزين؟ حزنك يؤلمني!
- لأنني على وشك الهجرة!
- إلى أين؟

- إلى أوروبا!
- ولماذا يحزنك ذلك؟
- لأنني أكره الهجرة!
- لماذا تكرهها؟
- لأنها حقيرة وتافهة ولا تتفق مع وطنيتي ومبدئي!
- ولماذا لم تنبئني بذلك من قبل؟
- لأنني أخشى الإخفاق.
- وما الذي يحدث إذا أخفقت؟
- لا يحدث أي شيء!
- إذن؟
- الشعور بذلك فقط!
- الشعور؟
- أجل الشعور!
- أتحسه صعبا عليك؟
- أصعب من ألم السكين!

وصمتت كعادتهما الأولى. ومارست التفكير والتأمل. وبقيت تنظر إلى عينيه الحزينتين وتضارس وجهه. وأيقظها بسؤال مفاجئ:

- لماذا تخلفت عن موعد في اليوم الماضي؟
- لأن الجبل امتعض قليلا.
- وغدا؟
- سأجيئك على الرغم من الدمار.

وانتهى وقت الاستراحة. عفوا، وانتهى وقت العناق والقبل. فنهضا من جانب الصخرة فسلما قصائد الشوق إلى أصحابها. وعند المفترق نزلت آلهة الحب إلى الضفة اليسرى بينما أخذ علي يسلك طريقا يؤدي به إلى سقراط وأفلاطون وحين انغمر بغابات بوذا ما كان ينسى مصر القديمة وحضارة بابل...

القصص القصيرة جدا

رجل:

رجل صغير جدا، جدا. له من العمر مئتان وخمسون عاما!.

تسلق خلال عمره القصير جبال العالم بخمس دقائق فقط!! وحين عاد إلى قريته تسلق تلا صغيرا فمات!!!

صديق:

آويته إلى بيتي حين تشرد. رقصت في عرسه حين تزوج. مشيت وراء جنازة أبيه حين مات. ولما غضب الزمان علي وتشردت في الأرياف والمدن. أغلق الباب بوجهي وما عاد يسأل!

الرئيس الأمريكي:

جلس الرئيس الأمريكي خلف مائدة الفطور منزعجا. فسألته زوجته:

- ما بك يا بوش؟

أجابها:

- حلم فظيع يا زوجتي!

قالت له:

- قصه علي.

قال لها:

- عمت كثيرا في بحيرة من الدم!

قالت له:

- لا تخف يا حبيبي. إنها دماء قتلى العرب!!

مومس:

المومس التي حضر في بيتها ما لا يعد ولا يحصى من الرجال. وعملت في هذا العمل الشريف مدة عشرين عاما وأكثر. أغلقت الباب بوجه ابن عمها إذ شعر بالحاجة إلى امرأة شريفة مثلها!

سكن:

لم يبق حي في دمشق إلا وسكن فيه. وحين ارتفع راتبه إلى السقف الأعلى حاول الاقتراب إلى مركز المدينة فسكن في كفر سوسة! ثم اقترب أكثر وأكثر فسكن في اللوان! ثم اقترب أكثر فأكثر فسكن في قرية دروشة. ثم اقترب أكثر وأكثر فسكن في مخيم خان الشيح! ثم اقترب أكثر وأكثر فسكن في جبل القلمون!. ثم اشتاق إلى الشام فسكن في مخيم الوافدين!. وأخيرا استقر تماما وتماما حين اشترى بيتا وسيعا في مقبرة عدرا!!

فتاة:

مرت فتاة من أمام شاعرين فسأل أحدهما الآخر:

- ما رأيك فيها؟

نظر الآخر إلى '....!' وقال:

- لا بأس. لديها ما يرفع الرأس إلى قمة المجد!!

مدرس:

المدرس الذي يعطي عشرين درسا في المدرسة. وعشرين درسا خارجها. عجز عن إعطاء درس واحد لابنه الوحيد الأوحد.

جبل:

خلفت ورائي جبلا أشم يريدني أن أمضي. وأن أطوي المسافات دون ملل وكلل. وأخبرني أحد الذين بقوا يحرسونه بأن الجبل امتعض كثيرا حين علم ببعض تعثري. ثم حزن حين قالوا له: 'إن الرجل لم يعد كما كان عليه من قبل'. غير أن الشجرة التي حرستها طويلا. وحافظت على ديمومتها بالسقاية المنتظمة. قالت لمن قال الخبر: 'إن المقاتل إذا أثخن بالجراح من الممكن أن يسقط'!

معركة:

قبل أن تبدأ المعركة بأيام كنت أحاط بالكثير من الرجال. وكان كل واحد منهم يطلب إلي ألا أتراجع، و'ألا نتراجع أبدا!'. وحين اندلع القتال. وكثر الأعداء. وبدأت السيوف تبرق وترعد، وجدت أنني وحيدا أوحد!. لذلك بعد أن أثخنت بالجراح قدمت أسيرا إلى ملك الروم فأكرمني وأحشمني وطلب إلي أن أعيد النظر في خطئي ولكنني حين رفضت أسلمني إلى عسكري من الأوس فحز عنقي!

قول:

قال أحد الأصدقاء:

- أتعتقد أن المعركة انتهت؟

قلت له:

- إنها في بدء اندلاعها وللا تنتهي أبداً!

نَهَر:

النهر الذي طويته فوضعته في حقيبتي عجز عن أن يسعفني حين ظمئت كثيراً في قلب صحراء العرب!

غَابة:

ما سمحت لأحدٍ أن يقطع منها شجرة واحدة. وحين اضطررت إلى اللجوء إليها وجدتها صحراء بدوٍ قاحلة!

اتفاق:

اتفق السارق والمسروق على إعادة الأحصنة لتبقى الإبل والأبقار في حظيرة السارق الآخر!!!

عَوْدَة:

بعد ثلاثين عاماً من التشرد عدت إلى وطني!! كان رأسي لم يزل أسود ولون عينيَّ لم يتغيَّر أبداً. وإن قامتي لا تطول ولا تقصُر. والغريب في الأمر أنّ وزني ظلّ على الوزن نفسه تماماً وتماماً. ومع أنني حافظت على لغتي من ألفها إلى يائها. وعلى الرغم من أنني احتفظت بصفاتي دونَ أن أغيّرها. ومع هذا وذاك وتلك، رفضت زوجتي أن تستقبلني لأنني لم أتزوج امرأة بعدها.

مرفأ:

بعد سيرٍ طويلٍ وصلتُ إلى المرفأ فوجدتُ أنَّ العاملين فيه ضفادع لا تعرف عن الناس شيئاً!

غزالة:

أعجبت بها كثيراً حين رأيتها. ثم رأيتها مرّةً أخرى فعشقتها. ثم انجررتُ إلى مراقبتها في كلّ يوم ألجأ فيه إلى الجبل. وحين نصبت لها شركاً ووقعت أسيرة بين يدي، وجدت أنها أرنبٌ عوراء لا يوجد فوق أضلاعها إلا جلدها الرقيق الأجرب!

شجرة:

الشجرة التي غرستها في الأرض المناسبة. وسقيتها بالماء في كل يومٍ جديدٍ أثمرت بعد أعوامٍ طوالٍ وبقيت تثمر إلى أن جاء حفيدي فزينها بالأضواء يوم عرسه.

شاعر:

لا يعمل شيئاً سوى كتابة الشعر. وحين جاعَ التهم الشعرَ فمات!

رسول:

الرّسول الذي حَذّرنا من فوضى الكارثة. وعلّمنا القراءَة والكتابة. وعلمنا كيف نحب نصبنا له كميناً في طريقٍ مُظلمٍ فأطلقنا الرصاص عليهِ ومات!!

صديق:

صديقي الذي كُنت أنتظره في أرض المطار. وصديقي الذي كُنتُ أودّعه في أرض المطار. وصديقي الذي بكيتُ معه حين أبكاه

الزمانُ. وفرحتُ معه حين أفرحه المكانُ. أدار وجهه عنّي وقت كُنتُ جريحاً أُحتضر.

صديقة:

الصديقة التي لا أجمل منها على الإطلاق. والصديقة التي تحمل ما لا تحمل غيرها من الفل وزهر الجلنار. صديقتي التي صادقتني ألف عام وأكثر. قتلها الوشاة وحارس ضيعتنا الأعور

صديق:

وأنا في طريقي إلى القداس الحزين! رأيته واقفا على الرصيف القديم. كان لم يزل أشعث الرأس وعريض المنكبين. وحين حاولت أن أنزل من الباص وأذهب إليه، تذكرت أنه ما عاد يجدي لغناء جوقتنا الأرعن.

لوحة:

عملت على أن تكون جميلة بكل ما تعنيه الكلمة. فلم أفارق العمل فيها يوما واحدا. ولا ليلة واحدة. ولا ساعة واحدة. ولذلك حين علقتها على جدار المعرض، ولمعت ألوانها كبرق الشتاء وأقواس قزح، جاء كبير الرسامين في روما وقال لي: إياك أن تبيعها إلى تاجر أعور.

رسالة:

لم تنتهِ الأشياء. والدنيا لم تزل بخيرٍ. والشجرة التي غرستها لم تزل خضراء، خضراء بانتظارك. أما أنا. فقد شاب رأسي وتقوّس ظهري. وتساقطت أضراسي. وما عاد شيء يسعدني سوى عودتك بعد غيابٍ دام ثلاثين عاماً وأكثر!

شجرة:

جلس رجل دين تحت شجرة وسأل أهلها:

- ألهذهِ الشجرة قصة في سجلّ بيتكم؟

أجابه الجميعُ:

- إنها شجرة الحرية.

وسأل ثانيةً:

- أمن الممكن أن أعرف غارسها؟

قالوا له:

- قتله الطغاةُ ولا ندري بأية أرضٍ دُفن!

صحراء:

الصحراء التي فارقها العشبُ منذ زمنٍ طويلٍ. وهجرها الرعاةُ والغزلانُ وبقيّة الحيوانات الأخرى. فما عادت اليوم خاليةً بعد أن حلّقت الغيوم في سمائها. ونزل المطر عَليها فبات يرقص.

رجل:

وَهبَ نفسه للناس والحفاة فاتهَمَه الطغاةُ بالزندقة!

سَيف:

سيفه الذي أودعه الأرضَ قبل أن يهاجر إلى الهند توقع أنه صَدئ وتآكل وما عاد يجدي. ولكنه حين عادَ إليه بعد عشرينَ عاماً ونفض الغبار عن غمدهِ فاستله وجد أنه يقطع الفولاذ وسلاسل سجنه.

غابة:

الغابة التي أحرقها الطغاة والرعاةُ وما ظلّ منها إلا المكان الأجرد الأسود. وجدتها اليوم الأحد الموافق لليوم السابع عشر من شهر أيلول لعام الألفين، خضراء، خضراء، تنتشر تحت أشجارها الوارفة المورقة قطعان الغزلان والمواشي وأنواع لا تعد ولا تحصى من الطيور والنباتات الشافية لأمراض الشعوب المعقدة!!

صديق:

الصديق الذي فارقني منذ آلاف السنين، وتوقعت أنه نسيني ولن يعودَ مرّةً أخرى، جاءَني اليوم الاثنين المصادف لليوم الثامن عشر من شهر أيلول لعام الألفين بحزمةٍ من الغيوم وستين طيراً من 'الكَوِّ' وأسراب بطٍّ وقطا.

مَسافة:

توقع أنها شاسعة ووعرة ومُعتمة الطرقات في الوقت ذاته. وإذ قطعها بدقائق قصار بدون تعبٍ وملل شعر أنَّ الغابة المحترقة من الممكن أن تورق من جديد وتستظيف الطيور وقطعان المواشي والوعلُ.

مَحَطّة:

مرَّ بها قبل عشرينَ عاماً فرآها مملوءَةً بأسرابِ الحمام والقطا. ومرَّ بها في أثناء الحروب ولم يرَ فيها إلا الذئاب والثعالبَ والقطط المتوحشة. ومَرّ بها عام الألفين فوجد الناسَ قد ملأتها وثمَّةَ عروس تتبختر بفستانها الأبيض.

كاتب:

حين انكسر القلم الذي يحبه. ولم يجد طريقةً لإصلاحهِ قام وخبأه في ثنايا حقيبة يدوية ثم وضع الحقيبة في صندوقٍ خشبيٍ وأغلقه عليها. وحين عاد إلى الصندوق بعد عشرينَ عاماً وفتحه وجد القلم مملوءاً بالحبر ويكتب.

إبل:

الإبل التي صادرها الروم. والأغنام التي نهبها الفرس. وخيلنا التي سرقها الغجريون وقطّاع الطرق. استعدتها اليوم الجمعة الموافق لليوم الثاني والعشرين من شهر أيلول لعام الألفين وذلك بعد معركة حامية الوطيس مع الأنذالِ من أبناء قريتي وجنديٍ واحدٍ لا يمت بصلةٍ إلى الناس وأمتي!

خبَرْ:

نشرت الصحف العربيّة خبراً مفاده أنّ عليّ بن نَدها بعد أن قتل ودُفن في اليوم الأوّل من عام ألفٍ وتسعمائة وثمانينَ وجده الناس في اليوم نفسه من عام الألفين يبشر بعهدٍ جديدٍ يملؤه الخير ولا يُرى فيه شرطيٌ أعورٌ.

نَهَرْ:

النهر الذي تعرفه الناس بالنهر الأعمى. وما عاد فيه يمام ولا حمامٌ منذ سنوات. رأيته اليوم السبت الموافق لليوم الثالث والعشرين من شهر أيلول لعام الألفين، مملوءاً بالمياه وعلى ضفتيه أشجار حورٍ وصفصافٍ وأشجار طَرفاء وغَرَبٌ(*).

(*) غرب: تسمية متعارف عليها بشجر ينمو على ضفاف نهري كارون والفرات.

وداد:

تتغيّب وداد كثيراً. تنقطع أخبارها طويلاً. أسأل الناسَ والأجناس عنها ولا أجد من يقول لي إنها ماتت أو عاشت. وحين أتعب من البحث والأسئلة، وأجلس إلى طاولة الكتابةِ وأكتب، تجيئني وداد على شكل الحمامِ وأحياناً على صورةِ ملاكٍ أبيض.

2:

سألني أحد الأصدقاء:

– من هذهِ وداد التي تحبها كثيراً؟

قلت له:

– إنها آلهة الرومانِ والعرب.

3:

قالت شقيقتي فاطمة 'إذ كُنت مكفهر الوجه ومكتئباً':

– أليس من الأفضل أن تترك وداد وتبحث عن واحدةٍ غيرها؟

قلت لها:

– لو أجد امرأة مثل وداد لاتكلت على رب العباد وربي.

4:

حين مرضتُ مرضاً شديداً. وتغيّرت ملامح وجهي من الألف إلى الياء، ذهبت والدتي إلى منجم عربي وطلبت إليه أن ينظر في أسباب قصتي. قال لها المنجم: لا شيء سوى أنه يحب امرأةً من بلاد الشام اسمها من أربعة أحرفٍ فقط. والحرف الأوّل: 'واو'.

5:

سألتني صديقتي التي تدرس الفلسفة في جامعة دمشق:

– كم امرأةً تعرفت مُذ هاجرتْ وداد إلى المكسيك وحتى الآن؟

قلت لها:

- أكثر من أصابع كفّي بكثير.

قالت:

- أما أحببتَ واحدةً منهنَّ كما أحببت وداد؟

قلت لها:

- صدقيني لم أحب امرأة بعد وداد أبداً!

6:

الصحفي الذي سلمته القصص المتعلقة بوداد وطلبت إليه أن ينشرها في جريدته، قال:

- لا أستطيع نشرها أبداً!

قلت له:

- لماذا يا صديقي؟!

قال:

- أخاف أن تحرضني على ترك الجريدة وأذهب إلى المكسيك لأرى من هذهِ وداد التي أقمت الدنيا بها وأقعدتها؟

قلت له:

- لو رأيت وداد فعلاً لجننت وما عدت إلى الشام أبداً.

7:

جاءَني أحد القُراء وسألني:

- أستاذ، لماذا تكثر من الكتابة عن وداد؟

قلت له:

- لأنها الإله الذي لا أستطيع ألاّ أعبده أبداً.

صحفي:

سأل أحد الصحفيين قارئاً:

- منذ متى تقرأ بهذا النهم يا صديقي؟

- منذ عشرينَ عاماً وأكثر!

قال له:

- وطالما أنَّكَ بهذا الشكل المميت من القراءَة فلماذا لا تحاول أن تكتب؟

أجابه:

- يبدو أنني خُلقت للقراءَة فقط. وأما الكتابة فسأتَطَفَّل عليها في يومٍ من الأيام كما تطفَّل شكسبير على كتابة المسرح!

زوجة:

سألت إحدى النساء زوجها:

- إلى أين تريد أن تذهب اليوم؟

قال لها:

- ذاهبٌ إلى المكتبة.

قالت له:

- وهل تعطيك المكتبة خبزاً إذا جعت؟!

أجابها:

- إذا لم تعطني الخبزَ فإنها تعطيني العقل الذي يساعدني على فهم العالم وفهم نفسي.

موظف:

سأل موظف زميلتَه التي يحبها:

- لماذا قبلتِ بذلك النحيف المهترئ الملابس وما قبلت بي حين خطبتكِ؟

قالت له:

- إنك تملك كُلّ شيءٍ من المالِ ولا تملك العلم الذي يملكه خطيبي.

طالب:

قالَ طالبٌ لأبيه:

- لماذا أنفقت كلّ ما تملك من المال عليَّ لأصبح متعلماً يا أبي؟

أجابه:

- لكيلا تدفع ضريبة أميَّتي كما دفعت ضريبةَ أُميَّة جَدكَ.

فتاة:

سألت فتاة شقيقها:

- أذاهبٌ لتلعب أم لتدرس؟

أجابها:

- لأدرس.

قالت له:

- فإذن تستحق ما تأخذ من جيب أبيك.

قلم:

سأل كاتبٌ ابنه:

- ما الذي أجلبه إليكَ عند عودتي؟

قال له:

- قلم.

وجلب القلم إليه وقال له:

- إياك ألاّ تعطي القلم حقه.

أعمى:

في يومٍ ماطرٍ ومُنعشٍ وجميل نظر الأعمى إلى وجههِ في المرآة فرآه أجمل وجهٍ تقع تحت حاجبيه عينان جميلتان تريان السماءَ ممطرةً. والأشجار مورقةً. وثمَّةَ أطفال يلعبون تحت المطر.

مقاتل:

حين وصل إلى أرض القتالِ وحاول أن يقاتل وجد أن الرصاصَ خُلّبياً لا يصلح للمعركة!

كلاب:

الكلاب التي تلهث وراءَ كلبةٍ حاولت ألا أصغي إليها عندما نبحت.

وعد:

قبل أن يودعها في آخر زيارةٍ من زياراتها قال لها:

- متى تعودينَ مرةً أخرى؟

قالت له:

- سأعود إليك حين ينزل المطر.

ونزل المطر سبعة أيامٍ متتاليةٍ وما عادت إليه قط.

رجل:

حين وجد الضباب قد خيم على الحي من كل جانبٍ ومكان صَعَد إلى قمة قاسيون فرأى شمساً ساطعةً تضحك خلف الجبل.

دونجوان:

لحظة كان يضع لسانه على فرج مومس شمطاء، تأوهت زوجه تحت فيلسوف لا يضاجع إلا النساء الشريفات فقط

قول:

قال لي أحد الأصدقاء:

- لا تمازحها يا علي:

قلت له:

- لماذا يا صديقي؟

قال:

'.....!' لو طوقته بطوقٍ من الذهب!

- (..... !)

خبر:

نشرت الصحف العربية خبراً غريباً مفاده أن المحنّا الديلمي بعد أن قتل ودُفن في اليوم الأول من عامِ ألفٍ وتسعمائةٍ وواحدٍ وثمانينَ وَجَدَه الناس في اليوم نفسه من عام الألفين يبشر الناس بعهدٍ جديدٍ يملؤه الخير ولا يُرى فيه شرطي أعور.

الفهرس

العنوان ..... رقم الصفحة

الإهداء 5

المقدمة 7

مجزرة الجنون 13

جبل الرقابية 27

الشنفرى 31

الحلم الرابع 35

المفاجأة 39

مأتم الهجرة 43

القصة القصيرة جداً 49

من الكتاب

حَصَل المزيدُ مِن الخير حينَ اكتشفت أن حمل الجبل مَعي أفضل مِن البقاء في مكانِه. ولذلك استعنتُ بعروة ابن الورد فحملته على كتفي ومشيت! في بادئ الأمر شعرتُ أنه خفيفٌ حينَ اتكأ على كتفي الأيمن. وإذ وضعته على كتفي الأيسر شعرتُ أنّ ثقله بدأ يرتفع شيئاً بعد شيء. ومع هذا الشعور بقيتُ أمشي في طريقٍ طويلٍ مُتَعرّج تارةً يخترق الجبال المملوءة بالوديان والديدان والوحوش وتارة أخرى أدخل غابات كثيفة تعترضني فيها أنهار وأغوار تنتشر فيها أفاعي الكوبرا وثعالب ما رأيت مثلها في جميع الأسفار القديمة إذ كنت رسول سلام بين العيلاميين المقيمين في أرض سوسة والآشوريين الموجودين في أنحاء نينوى.